قراءة في ديوان

« القدس في العيون »

للشاعر كمال رشيد

obeikandl.com

ضمن سلسلة «نحو أدب إسلامي عالمي» التي تصدرها دار الوفاء في المنصورة ، صدر الديوان الثالث للشاعر الفلسطيني كمال رشيد وهو بعنوان «القدس في العيون» وذلك بعد ديوانيه : شدو الغرباء وعيون في الظلام .

قدم للديوان الشاعر والناقد الإسلامي الكبير الدكتور عماد الدين خليل وقال : «يكفي الإنسان شرفاً أن يقدم لديوان يحكي عن القضية . . فإذا كان أطفال فلسطين اليوم يرشقون بني إسرائيل بالحجارة ، فلا أقل من أن يرشقهم شعراؤنا بالكلمات فإن لهذه قدرة على الضرب قد لا تنقص عن فعل الحجارة ».

ليس كثيراً على الانتفاضة المباركة في فلسطين المحتلة أن يخصص لها كمال رشيد ديواناً كاملاً يتغنى ببطولاتها وأمجادها وانجازاتها ، بل لعل الغريب هو أن لا يفعل . ذلك أن كمال رشيد مسكون بهمّ فلسطين ، ليس لأنه أحد أبنائها الذين اكتووا بنارها وحملوها نبضاً حياً رغم تعدد المنافي ، بل لأنه قبل ذلك شاعر مسلم ملتزم يعي ما تشكله القضية الفلسطينية من محور للصراع بين المشروع الحضاري الإسلامي والمشروع الصهيوني التوسعي الذي يهدف إلى إبقاء هذه الأمة في حالة من الانقلاب والتبعية إلى أبد

* نشر المقال في صحيفة "الشرق الأوسط" اللندنية - ١٤/١١/١٩٩٠.

الآبدين . فلا نستغرب أبداً حين نرى دموع كمال رشيد حية بين السطور وهو يجول بأفكاره في ساحات الهوان التي تتمرغ فيها الأمة صباح مساء، أو نراها (أي دموعه) رأي العين تنهمر على خديه وهو يقرأ أشعاره في أمسية أو ملتقى أو ندوة .

● كلمة واحدة وهدف واحد

عن هذا اللون من الدواوين التي تتخصص في موضوع واحد أو قضية واحدة لا تفارقها ، يعلق الدكتور عماد الدين خليل في المقدمة بقوله : «مضى عصر العدسات المفرقة التي تعطينا قصيدة هنا وأخرى هناك . . تتبعثر أشعتها فلا تكاد تضيء أو تحرق ريثما ينسحب وجدان القارئ أو السامع عن التعامل معها . . أما هنا فإن أشعة الديوان كلها تتجمع لكي تقول -مع تغاير الأصوات- شيئاً واحداً . . تصرخ بكلمة واحدة . . تعبر عن هدف واحد ، وتصب في بؤرة واحدة . . فتجعل طعم النار . . في فم القارئ ، ومسها في أطراف أصابعه حتى بعد مفارقة الديوان . . ومع النار إضاعة مركزة يعرف الإنسان -بهديها- كيف وأنى يكون السبيل».

كثيرون هم الذين غنوا للانتفاضة ، ولكن ما أقل الذين

كتبوا نبضها الحقيقي ، ونصروها حق النصرة ، ولمسوا بأصابعهم سر اشتداد عودها ونضرة أغصانها . . ذلك أن أغلب الشعراء قد وقفوا مشدوهين أمام هذا الطفل أو الشاب الذي خرج من ركام التاريخ ليضع الجديد بلونه الزاهي، ويطوي صفحات الهزائم ويكتب صفحات جديدة لم يعهدها الذين ضاعوا في الممرات الواقعة ما بين الشرق والغرب . وظل هؤلاء الكتاب والشعراء يمجدون هذا الجنرال الجديد وحجارته العظيمة ، يتبركون به حيناً ، ويلقون عليه تعليمات الصمود والمقاومة أحياناً.

وحدهم الشعراء الاسلاميون ، هم الذين أدركوا سر هذه الدفقة الجديدة في الدم العربي المعاصر . . وحدهم الذي تسللوا إلى قلب الظاهرة وجلوا خباياها وأعلنوا على الملأ أن حصان الجهاد الذي طالت كبوته بدأ ينهض من جديد في أزقة جباليا والبريج وبلاطة وجنين ونابلس والقدس . إنه الإسلام المجاهد الذي غيب زمناً طويلاً عن ساحة الصراع يعود من جديد بمقلاع وحجر وسكين في اليد المتوضئة ومصحف في الجيب أو في القلب.

هذا هو سر الانتفاضة الذي أدركه كمال رشيد فذهب يصوغه شعراً . ويربطه بتاريخ مشرق منذ محمد صلى الله

عليه وسلم وحتى صرخات عز الدين القسام في أحراش «يعبد»: أنه جهاد . . نصر أو استشهاد . بل هو يربطه بتاريخ جهاد الخير ضد الشر منذ انطلاقة الانسانية على وجه هذه الأرض ، وجهاد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

من الأبيات الأولى في الديوان يضع الشاعر النقاط على الحروف حول أهداف شعره وحول رؤيته للظاهرة الجهادية في فلسطين:

حسبي من الشعر أن مجّدت أوطاني

سجلت ما شاده بالعزم إخواني

هذي فلسطين والأفعال شاهدة

تقودها للعلا آيات قرآني

هو الجهاد سبيل المسلمين ولا

ينأون عنه ، وفيه الأحمر القاني

ويقول في قصيدة «ثورة الحق»:

يا طريق الرجال نحو المعالي

يا سبيلاً إلى جنان الخلود

خالد مات ؟! لم يمت فهو رمز

هو فينا ، في قلب كل حفيد

هو صوت الجهاد في كل عصر

وهو يعطي الشهيد تلو الشهيد

هكذا تكون آيات القرآن الكريم هي القائد والرائد نحو المعالي ، ويكون التاريخ الجهادي هو العلم والشاهد الذي يدفع الأجيال إلى مزيد من العطاء فخالد يظل رمز الجهاد ، سواء كان خالد بن الوليد ، أو كان خالداً المعاصر الذي نزل بطائرته الشراعية على الجنود الصهاينة كالقدر يحصدهم حصدا، المصحف في جيبه يمده بالعزم ويمنحه الطمأنينة.

مصطلحات الانتفاضة السائدة والتي فرضتها هذه الثورة على لغة التعامل السائدة فضلاً عن وسائل الإعلام ، هذه المصطلحات نراها تبرز لنا في كل صفحة من صفحات الديوان المائة ..

الشهادة ، الشهيد ، الحجر ، المقلاع، الثورة ، الإيمان ، المصحف ، الجهاد ، الاسراء ، الزيتون ، المساجد، فضلاً عن أسماء المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية ، غزة ، نابلس ، جنين .. الخ.

الشهر الثالث والعشرون

يأتي يا قدس وينصرم

وقلوب القوم معلقة

بهواك تعود فترتسم

والنار بغزة صاعدة

تزداد لهيباً تحتدم

لا خوف اليوم على شعب

في عقدالعزة ينتظم

تغلب على القصائد سمة الوضوح كما يقول الدكتور عماد الدين خليل ، يزيد هذا الوضوح عن حده ليصل إلى درجة المباشرة التقريرية ويقل أحياناً ليكون نموذجاً طيباً لحسن التواصل مع القارئ والابتعاد عن الغموض المسف.

رغم غلبة الخطاب السياسي في أكثر القصائد وارتفاع النبرة الخطابية إلا أن الشعر يظل حاضراً بصوره وتراكيبه واستعاراته . وبالطبع يختلف هذا من قصيدة إلى أخرى . وفي الشعر العمودي بشكل عام تغلب المباشرة وترتفع النبرة الخطابية ، وقلما ينجو من ذلك بعض الشعراء:

obeikandl.com

يا من يطوف ببيت الله معتمرا

القدس طاف بها حقد وأردانا

وأمعن القتل والتشريد في مهج

وجاء بالقول تزويراً وبهتانا

ولم يؤثر صلاح الدين فاتحها

ولم يقم لخطى الفاروق حسبانا

كمال رشيد ليس من المتعصبين لنوع واحد من الشعر من أمثال بعض الشعراء الذي يعتبرون شعر التفعيلة نوعاً دخيلاً على الأدب العربي لا يجوز التعامل معه . فشاعرنا يطلق لتجربته العنان ، فهو يكتب الشعر العمودي ويكتب كذلك شعر التفعيلة أو الشعر الحر ، وشعر التفعيلة له من المزايا الجيدة التي تعطي للشعر فرصة التعبير عن نبضه بحرية وبدون قيود وتعطيه أيضاً فرصة الانطلاق بصوره إلى آفاق أكثر شاعرية . كما أنه يستطيع التخلص من المباشرة التقريرية أكثر منه في العمودي .

في الديوان هناك مجموعة من القصائد الحرة وهي بالتأكيد ليست من أجمل ما كتب كمال رشيد، كما أنها

ليست أجمل قصائد الديوان ، على غير ما توقعنا إذ أن بعضها تزداد فيه نسبة النثرية، وحتى عادي الكلام، أكثر من اللازم . .

عالمي يحمل أشياء سخيفة

جل ما يعرض في المذياع في التلفاز،

أشياء سخيفة

والصحيفة

والوظيفة

وسويعات الدوام

تتمطى دون جدوى مثل يوم ، مثل شهر ، مثل عام

عامر فيها الكلام

والذي ينكر ما يفعله الناس يلام

ولكنه في قصائد أخرى يكون أقدر على تكثيف عباراته وحملها على أن تقول

الكثير الكثير باستعارات وصور جميلة . .

عندما تجلس زرقاء اليمامة

obeikandl.com

في فناء البيت ترنو للبعيد

ترقب الأشياء والأسماء في الأفق المديد

لن ترى أكبر من وجه الشهيد

ويقول في مقطع آخر :

لم يبق لي إلا التفنن في الرسوم وفي الخرائط

لكنني علقتها في القلب لا في صدر حائط

بلدي وماذا بعدها

فيها حياتي كل تاريخي وماضي أمتي

فيها ابتسامة طفلتي

فيها تركت هويتي. .

هذه قراءة سريعة وعابرة في ديوان يستحق أكثر من هذا، وحسبنا في ذلك الكلمة الرائعة التي خطها المبدع الكبير الدكتور عماد الدين خليل في مقدمة الديوان والتي زادته روعة على روعته .

●●●

obeikandl.com